مؤلف معتمد وفق البرنامج الجديد للغة العربية
من لدن وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي
قطاع التربية الوطنية / المملكة المغربية

سيرة ذاتية

الرحلة الأصعب

فدوى طوقان

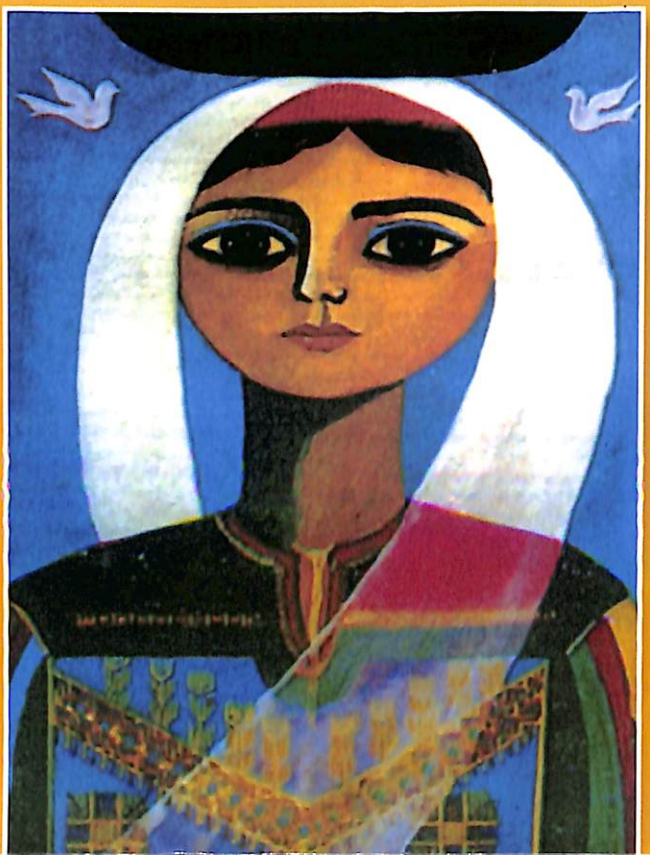

الناشر

(١)

لن تبرح مخيلتي صورة ذلك اليوم الحزيراني المشؤوم ، يوم الاثنين الخامس من حزيران العام ١٩٦٧ . كنت في عصر اليوم السابق قد مضيت الى القدس استجابة للنداء التلفوني من « الصديق الغريب » هناك ، حيث اقترح علي المغادرة الى عمان أو بيروت فالحرب وشيكة الوقوع وهذا شيء مؤكد . ولكني أعلنت رفضي القاطع لفكرة الهرب، فنصحني بالتزود ببعض الخبز والأطعمة المعلبة والبن والسجائر الخ ....

صَمْتٌ منتصف الليل في الفندق موحش وثقيل . سيغادر الصديق بعد أيام قليلة عائدا الى بلاده ما وراء المحيطات . غفواتي قصيرة متقطعة . فكرة الحرب تملؤني بالرعب . مررت بتجربة هذا الرعب في حرب ١٩٤٨ . استحضر الان ذكرى ذلك العام ، العام ١٩٤٨ ، والحرب على أشدها بين العرب واليهود . ها هو بيت العائلة القديم يعج بمن لجأوا

اليه من أفراد العائلة المقيمين هنا وهناك ؛ ابن عمي خليل يترك بيته غرب المدينة ليلجأ الى بيت العائلة مع زوجته وأمه وأطفاله. اخي احمد يترك القدس ويفدُ علينا مع عائلته ، يجيء اخي يوسف وزوجته وأطفاله من غزة .

في غبش الصباح من كل يوم كانت تقوم طائرتان اسرائيليتان بضرب المدينة ، أصبح النوم في الطوابق العليا غير مأمون العواقب ، وهكذا نُقلت أسرة النوم الى الغرف السفلى ذات السقوف المقعرة والتي يستحيل وقوعها تحت طائلة الغارات الجوية ، فهي أشبه من جهة حصانتها بالملاجيء ، ناهيك عن كون أسلحة الطيران الاسرائلي لم تكن قد تطورت بعد تطورها الذي نعرفه اليوم .

كان بعض شباب الجيرة الشجعان في حارة الياسمينة يستهويهم الصعود الى الاسطحة واطلاق النار باتجاه الطائرتين المغيرتين ، حين يصبح تحليقهما على علو قريب . ذات يوم أصابت احدى الرصاصات الهدف ، فعادت الطائرة أدراجها للتو . في صبيحة اليوم التالي فوجئنا بطائرة تحوم وتحوم في جو المنطقة ، منطقة حارة الياسمينة ، لتلقي بقنابلها على احدى الدور الكبيرة العتيقة الملاصقة لدارنا ، فتهز المنطقة هزا عنيفا ، وتدمر جزءا من تلك الدار . منذ ذلك اليوم أصبحتُ مسكونة بكابوس الرعب من الغارات الجوية المباغتة.لست أخاف الموت ، انه النوم الأبدي . ما أخشاه وما يملؤني بالرعب هو الاصابة بعاهة تقعدني عاجزة مكسورة .

يا لكآبة ذلك المساء ، مساء الخامس من حزيران في القدس ! صخرة من الغم تربض على قلبي بكل ثقلها . الحرب ؟ يا للهول !

الاطفال هم نقطة الضعف المركزية عندي . حبي لهم يبلغ حد الوجع . قفز تفكيري نحو أطفال شقيقتي الاثنتين ، أديبه وحنان ، ثم تخطاهم الى أطفال الاخرين . أولئك هم أحباب الله ، فهل يتخلى عن حمايتهم ؟ كيف السبيل الى انقاذ كرمة وعمر وهانية وعمار واخواته من مواجهة الشبح القادم ؟ كيف السبيل الى حماية هؤلاء الأطفال وكل الاطفال الاخرين من معاناة الخوف والجوع والعطش وأهوال الحرب ومآسيها ؟ كم يعوزني الايمان .. وكم أنا بحاجة اليه في هذا الوقت العصيب ! يا أله ، اني أفزع اليك لاسألك الرحمة بأحبابك.

تناولت قهوتي في التاسعة من صباح اليوم التالي . أطفأت سيجارتي وخرجت إلى الشارع ريثما تحين ساعة اللقاء بالصديق الغريب، ذلك اللقاء الذي لم يتم ، والذي تناولته في القصيدة الثالثة ضمن خمس قصائد كانت أول ما كتبت من شعر بعد الانكسار الحزيراني ، وكان عنوانها « الى الصديق الغريب » ، وأتمنى الان لو أنني كنت قد استبدلت بهذا العنوان عنوانا أنسب للقصيدة وهو « لو » :

صديقي الغريب
لو أن طريقي اليك كأمسِ
لو أن الافاعي الهوا لك ليست
تعربد في كل دربِ
وتحفر قبرا لاهلي وشعبي
وتزرع موتا ونار
لو أن الهزيمة لا تمطر الان أرض بلادي
حجارة خزي وعار
ولو أن قلبي الذي تعرفُ
كما كان بالامس لاترعفُ
دماه على خنجر الانكسار
ولو أنني يا صديقي كأمسِ
أدل بقومي وداري وعزي
لكنت الى جنبك الان ، عند شواطيء حبك أرسي
سفينة عمري
لكنا كفرخي حمام !

من شارع صلاح الدين انعطفت بسيري يمينا باتجاه باب العمود . هنا لفتت انتباهي حالة ليست طبيعية ، الناس العابرون يتوقفون لدى أجهزة الراديو في المقاهي وفي الدكاكين منصتين واجمين ، فيما صوت

المذيع أحمد سعيد يهدر من اذاعة صوت العرب : « صواريخ الدفاع المصري تسقط كذا وكذا من طائرات الجيش الاسرائلي .. » كانت كلمات المذيع تنطلق كالقذائف ، متلاحقة ، محمومة ، والوجوه من حولي تكسوها تعابير غير واضحة . واصلت السير بعد وقفة غير قصيرة وقد أخذتني الدهشة والذهول والخوف . طرق سمعي صوت يناديني باسمي ، انه « محمود أمريش » سائق تكسي يعمل على خط نابلس القدس ينصحني بمغادرة القدس فورا ، فجميع السيارات التي تتجمع عادة في كراج نابلس بباب العمود قد باشرت بمغادرة القدس والعودة الى نابلس . أسرعت في التوجه نحو سيارة محمود امريش ، أخذت مقعدي الى جانب أحد الركاب ، انطلقت بنا السيارة تسابق قافلة السيارات العائدة الى نابلس ، فيما صوت أحمد سعيد الهادر من خلال جهاز الراديو يبشرنا بخسائر الطيران الاسرائلي المتتالية ، وكان محمود كلما تجاوز سيارة يمد ذراعه خارجا ملوحا لسائقها ، مهللا مبتهجا ملتهبا بالحماس ، فلقد كان الوجدان الشعبي الفلسطيني مشحونا آنذاك بالامل والثقة والنصر المؤكد .

كان الناس في شوارع نابلس في حالة فرح وابتهاج أشبه بالهستيريا . قمت بشراء بعض المونه ومضيت اتلفت باحثة عن سيارة تكسي توصلني الى بيتي . وعلى أمل أن أصادف على الطريق احدى السيارات ، واصلت المسير مثقلة بالهم والتوتر وبما أحمل من أكياس

المونة . كانت شمس ظهيرة السادس من حزيران شديدة الحرارة . قطعت مسافة نصف ساعة مشيا على القدمين في عز تلك الظهيرة الملتهبة ، قطعتها لاهثة مجهدة ، وحين وصلت بيتي كنت غارقة في العرق . اغتسلت بسرعة وانطرحت على فراشي لتدهمني بعد ذلك حمى ضربة شمس شديدة الوطأة ، مصحوبة بنزلة صدرية حادة .

ظلت حقيقة نتائج الحرب غائبة عنا غيابا كليا . خلال يومي الاثنين والثلاثاء بدأنا نتراوح بين شعور بالابتهاج راجت تبثة فينا البيانات المبشرة بالنصر ، وادعاءات المشير عبد الحكيم عامر عبر الاذاعات العربية القائلة ان الطيران المصري قد دمر أكثر من خمس وسبعين بالمئة من الطيران الحربي الاسرائلي ، كما دمرت القواعد الاسرائيلية ، وبين الحيرة والبلبلة من انتشار أقوال متضاربة عن تقدم القوات الاسرائيلية داخل الضفة الغربية (اذ كنا فريسة تتخبط بين مخالب الشك والقلق وعدم اليقين) ظلت الحقيقة غائبة طوال الايام الخمسة ، بدءا من ضرب المطارات الحربية في مصر ، ومرورا بامتداد القتال البري الى سورية ، ومعركة الشيخ جراح العنيفة في القدس ، والقصف الشديد الذي تعرضت له المنطقة هناك من الطيران الاسرائلي والمدفعية ، الى قصف الدبابات الاردنية في أريحا ووصول المدرعات الاسرائيلية اليها ، ونسف الجسرين واستيلاء قوات العدو على رام الله ، واحتلال بلدة قلقيلية القريبة من نابلس . مرورا بكل هذا ظلت الحقيقة غائبة حتى اليوم

السادس ، يوم صمتت المدافع في كل مكان ، عملا بقرارات مجلس الامن الدولي التي أصرت على وقف اطلاق النار بعد أن اكتمل السقوط التام ، سقوط الضفة الغربية والقطاع والجولان وسيناء .

في ضحى الاربعاء ، الثامن من حزيران طرقت بابي شقيقتي أديبة الملتصق بيتي الصغير ببيتها ، دخلت والدموع تتناثر من عينيها لتبلغني بصوت مخنوق نبأ احتلال الجيش الاسرائيلي للمدينة ، عَرَفَتْ ذلك من رفرفة قطع قماش بيضاء على أسطحة البيوت هنا وهناك في السفوح التي تطلّ عليها منطقتنا المسماة بمنطقة « المخفية » .

نهضت مسرعة بركبتين مرتجفتين ، وبقلب متلاحق الضربات اندفعت نحو البستان المشرف على السفوح والشوارع البعيدة . كانت المسافة التي تفصل منطقة « المخفية » عن المدينة تحول دون معرفتنا ما يجري فيها الا اذا وفد علينا وافد منها . اقتعدت احدى الدرجات الاربع قرب الباب مرهفة السمع ، لا صوت ، لا نأمة .. صمت موحش كصمت مقبرة مهجورة .. لقد أمسكت المدينة أنفاسها .. أواه يا مدينتي الصامتة الحزينة !!

كان الجيش الاسرائيلي قد فاجأ المدينة باقتحامها من حدودها الشرقية ، فبعد احتلاله لطوباس ، التف زاحفا نحو نابلس عبر شعاب جبل عيبال ليلقى هناك بعض المقاومة من قبل الشباب المتطوعين لم تلبث أن أخمدها العدو ، كما احتدمت في الشارع الرئيس شرقي نابلس

مقاومة أخرى أخمدتها القوات المحتلة بالقاء القنابل الحارقة على النوافذ والشرفات ، وشتى النواحي الاخرى .

خلال ساعتين كانت بعض سيارات بلدية نابلس تلف وتدور في مختلف أنحاء المدينة ، معلنة عبر مكبرات الصوت أوامر منع التجول الصادر من القائد الاسرائيلي .

* * *

الرحلة الأصعب

لن تبرح مخيلتي صور ذلك اليوم الحزيراني المشؤوم، يوم الاثنين الخامس من حزيران العام 1967. كنت في عصر اليوم السابق قد مضيت الى القدس استجابة للنداء التلفوني من «الصديق الغريب» هناك، حيث اقترح علي المغادرة الى عمان أو بيروت فالحرب وشيكة الوقوع وهذا شيء مؤكد. ولكني أعلنت رفضي القاطع لفكرة الهرب، فنصحني بالتزوّد ببعض الخبز والأطعمة المعلّبة والبن والسجائر الخ...

الناشر

دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف: 4618190 - 4618191 (6 962+)

فاكس: 4610065 (6 962+)

ص. ب: 926463 عمّان 11118، الأردنّ

E-mail: shorokjo@nol.com.jo

www.shorok.com

لوحة الغلاف: تيسير شرف